بين سلطان الاتراك وسلطان مصر

لقد عُني الاتراك العثمانيون بحفظ سجلاتهم ومحرراتهم الرسمية عناية يستفيد منها المؤرخ الاجتماعي ومن هذا القبيل كتاب في مجلدين كبيرين اسمهُ «منشئات السلاطين» جمعهُ احمد فريدون بك واثبت فيهِ كل ما يقال انهُ دار بين سلاطين آل عثمان وغيرهم من الامراء والملوك والسلاطين من عهد السلطان عثمان سنة ٦٨٣ هجرية الى عهد السلطان مراد الثالث سنة ٩٨٢ اي الى ان توفي فريدون بك. وقد رأينا في هذا الكتاب مراسلات دارت بين سلاطين آل عثمان وسلاطين القطر المصري قبل استيلاء العثمانيين عليهِ يستدلُّ منها على ان سلاطين مصر كانوا حينئذٍ مثل سلاطين آل عثمان او ارفع مقاماً. من ذلك رسالة من الملك الظاهر سيف الدين جقمق العلائي الظاهري الى السلطان مراد الثاني سنة ٨٤١ فانهُ لما توفي الملك الاشرف برسباي في ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ بويع بالملك ابنهُ يوسف جمال الدين وهو غلام في الرابعة عشرة من العمر ولُقب بالملك العزيز. وبعد ثلاثة اشهر خلعهُ قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلاني وولي السلطنة المصرية الاتابكي جقمق ولُقب بالملك الظاهر سيف الدين فكتب الى السلطان مراد يعلمهُ بذلك وهذا بعض ما جاء في رسالتهِ:

اعز الله تعالى انصار المقر الكريم العالي الاميري الكبيري العالمي العاملي العادلي .... معز الاسلام والمسلمين سيد الامراء في العالمين .... نبدي لعلمهِ الكريم انهُ ربما اتصل بسمعهِ ما قدَّرهُ الله عزَّ وجلَّ من انتقال الملك الاشرف برسباي بالوفاة الى عفو الله ودار كرامته بعد ان عهد لولده الطفل الصغير العزيز يوسف بالسلطنة وجعل مقامنا الشريف ناظراً ووصيًّا عليهِ وقائمًا باعباء نود مملكتهِ ومرشداً لهُ في اقواله وافعاله الى ان يأنس رشدهُ فاجلسناهُ على تخت الملك الشريف ليجري احوال المملكة على ما كانت عليهِ في حياة والدهِ الاشرف واستمرَّ الحال على النظام المذكور برهة من الزمن في غضون ذلك لاذ بالطفل المشار اليهِ زمرة من احداث مماليك والدهِ واخذوا في اضمار امور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب منها السعي في تفريق الكلمة المنتظمة ومنها القاء الفتن والخلف بين العساكر ومنها سلب خليفة الله امنًا على انفسهم وذريتهم ومنها استباحة ما حرَّمهُ الله عز وجل من اموال المسلمين ودمائهم وما وراء ذلك الى ان كاد والعياذ بالله تعالى ان يقع الخلل فيما نحن قابضون عليهِ من زمام المملكة. فلما ثقاة الامر اوى الينا خليفة الله في ارضهِ

مولانا امير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين وهو المستعصد بالله داود بن المتوكل العباسي اعزّ الله به الدين ومتّع ببقائه الاسلام والمسلمين ثم جمعوا المشايخ العظام وعلماء الانام والقضاة والفضلاء والائمة والخطباء وجملة اهل الحل والعقد وكافة اركان الدولة الشريفة وزمرة العساكر الاسلامية وطائفة الجنود السلطانية وعرضوا على سمعنا والحوا في قبول مرامهم وذلك الشروع في امور الخلافة بالاستقلال ..... وتصدى مشايخ الاسلام وافتوا ان الموافقة واجبة علينا .... ثم نظرنا بعين الحقيقة فاتضح لمرآة فكرنا اننا اذا لم نوافق على اجابة قصد التغير العام يؤول الحال الى خلل ربما تعسر تداركهُ فعند ذلك استخرنا الله تعالى واقبلنا اليهم وفوض مولانا امير المؤمنين امر السلطنة المعظمة الينا وخلع عنها من سوانا وافاض علينا شعار الملك واجلسنا على سرير السلطنة المعظمة ولقبنا بالملك الظاهر الخ والرسالة طويلة تملأ اربع صفحات من المقتطف . ومكان النقط كلام مترادف

فاجابهُ السلطان مراد برسالة تملا نحو سبع صفحات من المقتطف قال فيها .

« الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله » الاية فنحمدهُ حمداً يرتبط به العتيد مما اعلاهُ واولاهُ ويستجلب به المزيد مما رزقهُ واعطاهُ والصلاة على سيدنا محمد الذي ارسلهُ واصطفاهُ وايدهُ واجتباهُ بدين تحقق بالنصر رآياتهُ وكتاب تنطق بالحكمة آياتهُ ..... خلد الله الملك المقر الكريم السلطاني الاعظمي الملكي الظاهري الهمامي النظامي القوامي المنعمي المفضلي المشيدي المهدي المجاهدي المظاهري المرابطي المثاغري الصوفي الغوثي الزيني الليثي المولوي .... عون الدين كهف الثقلين سلطان الحرمين ظل الله على الخافقين حافظ بلاد الله ناصر عباد الله معين اولياء الله مذل اعداء الله مبدع سنة الكرم مفيض سجال النعم المنصور بتوضح الدلائل المستغاث في الشدائد والغوائل ..... وبعد ذلك كثير من الاوصاف المماثلة لما تقدم

ويهمنا من هذه الفقرات كلها الاعتراف بان ملك مصر هو سلطان الحرمين وبان الالقاب التي لقب بها تدل على ان السلطان العثماني كان ينظر اليهِ كانهُ مماثل لهُ او اعلى منهُ مقاماً . والملك الظاهر هذا كان مملوكاً قال ابن اياس في تاريخهِ انهُ جركسي الجنس جلبهُ الخواجه كزل فاشتراهُ منهُ العلائي علي بن الاتابكي ايتمال اليوسفي وقدمهُ الى الملك الظاهر برقوق فصار من جملة المماليك السلطانية . وعليهِ فما وصلهُ بهِ السلطان مراد راجعٌ الى ما كان يعلمهُ من امر الديار المصرية وما تصاحبها من المقام الرفيع مهما كان اصلهُ . ولم يهبط حال مصر في نظر آل عثمان الاَّ بعدما استولى عليها السلطان سليم